الفصل الثالث

لماذا اللغة الإنجليزية؟ (السياق الثقافي)
Why English? The Cultural Foundation

يقول جون واليس (John Wallis) في مقدمة كتابه نشر في عام ١٩٧٢ م بعنوان " قواعد اللغة الإنجليزية" : " لقد أخذت على عاتقي كتابة قواعد اللغة الإنجليزية ، لأن هناك طلبا متزايدا على مثل هذا الكتاب من متعلمي اللغة الإنجليزية الأجانب، واللذين يتعطشون إلى معرفة القواعد المتعددة للغة الإنجليزية، هذا عدا أن جميع الأعمال الأدبية الكبرى، وجميع المعارف الأساسية، والمخترعات، والعلوم، والاكتشافات – جميعها كتبت – وبدو ن مبالغة – باللغة الإنجليزية" . وإن كانت هذه الحجة وغيرها قد أصبحت مألوفة لدى الكثيرين مع بداية القرن الحادي والعشرين، فما بالك إذا كانت كتبت في عام ١٧٦٥م، إذ إن جون واليس كتب هذا الكتاب في تلك الفترة، وباللغة اللاتينية، وتمت ترجمته إلى الإنجليزية ثم نشر فيما بعد. وعلى الرغم من أن الإنجليزية في ذلك الوقت كانت لغة تواصل ثانوية، إلا أن جون واليس استشرف الوضع الذي ستكون عليه الأمور فيما بعد. وكان الوضع قد بدأ فعليا في التغيير منذ وقت شكسبير.

ولعدة عقود سابقة، بدأ نفوذ ريتشارد مالكستر (Richard Mulcaster) — وهو مدير مدرسة إنجليزية ذات سمعة عريقة بالانتشار حول دعم اللغة الإنجليزية، وانتشرت مقولته المعروفة" أنا أحب روما، ولكنني أحب لندن أكثر، وأفضل إيطاليا، ولكنني أفضل إنجلترا أكثر، واحترم اللغة اللاتينية، ولكنني أعشق اللغة الإنجليزية". ومع ذلك فقد كان مالكستر يعيش في مناخ مختلف فكريا جعله يشعر بوجوب الدفاع عن اللغة ضد أولئك الذين يعتقدون بأنها لا يمكن أن تأخذ مكان اللغة اللاتينية العظمى. وكان الكثير ممَن حوله يعتقدون بأن "اللغة العامية المجردة" لا يمكن استخدامها للتعبير عن الأفكار العظيمة والمركبة. لذا قام بالتعبير عن نفسه بشدة قائلا" لا اعتقد أنه بإمكان أي لغة التطرق لجميع النقاشات سواء بتعمق أو بوضوح أكثر أفضل من لغتنا الإنجليزية. وبعد عقد من الزمن أتى شكسبير ليثبت له بعض من الدلائل.

على الرغم من اقتناع مالكستر الشديد إلا إنه ما يزال يؤمن بوجود مشكلة. في الحقيقة الإنجليزية ليست النظير الحقيقي للغة اللاتينية على المستوى العالمي. فلغتنا الإنجليزية كما قال ميولك استر "من جهة ليست منتشرة كما هي اللاتينية فلم تمتد كثير من جزيرتنا هذه "في الحقيقة إنه كان محقا. إن اللغات السلتية كان موجودة في بريطانيا في ذلك الوقت والقليل من الناس يسافرون للخارج. وأكمل ميولك استر قائلا "إن دولتنا ليست إمبراطورية لتزيد من توسعها بالسيطرة على الدول. ولكن خلال سنتين عندما قام والتر راليف برحلته الاستكشافية الأولى لأمريكا بدأت الحالة تتغير جذريا ." والجميع ليسوا متشائمين كما هو حال مالكستر، فهذا ساميول دانيال (Samuel Daniel) يقول في قصيدته التي كتبها عام١٥٩٩م :

من يعلم أنه في وقت ما، يصل كنز لغتنا إلى شواطئ الغرباء
هذا مكسبِ مجدِنا الأفضلِ سَيُرسَلُ لإغْناء الأممِ المجهولةِ بدون قصصِ.
هناك عوالم في الغربِ عديمة الشكلِ لحد الآن. تأتي لهجاتنا لتنقيها.

أصبحت أراء دانيال حقيقية، ولكنها ليست على امتداد القرن. بعد خمسين سنة من تلك الفترة وعندما قام الشاعر والرحال رتشارد فلكون برحلة استغرقت عشر سنوات لأوروبا وآسيا وأفريقيا ولأمريكا وجد بأن اللغة الأسبانية والهولندية من أهم اللغات النافعة التي تستحق أن يتعلمها المرء، بينما يستفاد من اللغة الإنجليزية في أوقات محدده ،ولكن بحلول عام ١٧٥٠م أصبح الجو ملائما لـكستر فيلد (Chesterfield) للكتابة قائلا" إنها لسعادة غامرة أن يعلق المرء عن التطور السريع الذي تحققه لغتنا وما زالت في جميع أنحا أوروبا.

ثم كتب ديفد هيوم (David Hume) في عام ١٧٦٧م في الوقت التي كانت اللغة الفرنسية تصنف فيه كلغة للدبلوماسية العالمية قائلا: " إن أمريكا هي المفتاح لنجاح مستقبل اللغة الإنجليزية لذا دع الفرنسيين يفرحون قليلا بالانتشار الحالي للغتهم. فأساساتنا الصلبة والمتزايدة في أمريكا تعدنا بثبات واستمرارية غير مسبوقة للغة الإنجليزية". وفي عام ١٧٨٠م قام جون ادم (John Adam)بعرض جزءاً من اقتراحاته للكونغرس لتأسيس أكاديمية أمريكية وكان ذلك الاقتراح غير مشكوك فيه. فأغلب الأمريكيين يوافقون بأن اللغة الإنجليزية قد سبق تقييمها على أن تكون هي لغة العالم في القرون التالية ، كما هي اللغة اللاتينية في السابق واللغة الفرنسية في عصرنا هذا. وسبب ذلك واضحا وهو ارتفاع السكان في أمريكا وتواصلهم وتعاونهم العالمي مع كافة الشعوب بشكل حسن. وبمساعدة النفوذ الانجليزي حول العالم بغض النظر عن حجمه الذي بدوره اجبر العموم على التحدث بالإنجليزية في الأماكن العامة. بالرغم من جميع العقبات التي قد تعترض طريقه إذا كانت هنالك عقبات فإنه أثبت أنه هو الرسالة الصحيحة. وقد نتوقع أن يقوم الأمريكيون والبريطانيون أنفسهم بصخب لدعم لغتهم وفي الواقع حتى أفكارهم كانت تعبر بشيء من التملق والمبالغة. والتي جعلتنا

نجدها الآن محرجة ومتطلبة لرؤية البصيرة الإلهية التي قادة تلك اللغة للانتشار. أول تلك الاقتراحات بأن هنالك شيء فريد الجوهر حول طريقة لفضها أو في بنائها اللغوي، وهي الفكرة التي اعترضت عليها في الفصل الأول. كانت لحظة من اللحظات الهامة عندما عَلّق العالم الألماني "جاكوب جرمن" وهو رئيس علماء اللغة في عهده عام ١٨٥٠م قائلا "في اللغات الحديثة لا توجد لغة تتطلب ذلك الترابط العظيم والقوه كاللغة الإنجليزية "واختتم كلامه "ربما تسمى بلغة العالم مخمناً بأنها سوف تسيطر في المستقبل مع وجود تلك الاهتزازات العارمة في جميع أنحاء العالم. وكانت هذه الفكرة فكرة صائبة فخلال القرن التاسع عشر تضاعفت أفكار شبيهة بفكرته عندما اتسعت الإمبراطورية البريطانية. قام عالم اللغة الأمريكي "رتشارد دابلوبالي" بكتابة تاريخ ثقافة اللغة "صور من الإنجليزية" واقتبس عدد من التعليقات من كتاب معاصرين عرض عدد من النقاط حول كيفية تغير النزعة بحلول عام ١٨٥٠م. ولعل اقتباسه واحدة تكفي لإيضاح الرأي السائد حول الكتاب في عام ١٨٢٩م.

إنه من الواضح للذين يكرسون جل اهتماماتهم بهذا الموضوع بأن للغة الإنجليزية الحظ الأوفر لتصبح الأكثر انتشارا عالميا سواء من ناحية القراءة، أو التحدث إذا أعطي الاهتمام اللازم بعميلة التعليم. ففي أوروبا بدأت دراسة اللغة الإنجليزية تتزايد تدريجياً، وتعتبر في ألمانيا وروسيا والدول الإسكندنافية شيئا أساسيا، وتعتبر أيضا في فرنسا شيئا نافع بشكل كبير وجزءاً من التعليم. وفي أفريقيا حلت اللغة الإنجليزية محل اللغة الهولندية وأصبحت وسيلة للمعلومات القيمة. وأصبحت في جزر المحيط الهادي الجنوبية الوحيدة الأوسع استخداما من ناحية التحدث كاللغة الأوروبية المعروفة في القارة .وفي آسيا يوجد رغبة عارمة لتعلمها كما ذكر القس هايبر قائلا إذا تم توفير الوسائل المناسبة فمن الممكن خلال خمسين سنة أن تقلب اللغة الهندوستون

وتصبح الإنجليزية لغة الحكم والترفيه في الهند. أما في أمريكا فإن الملايين حاليا يتحدثون بها ويكتبون بها ويقرؤونها بوصفها لغة أم. لم يحدث هذا مسبقا للغة ما هل يوجد لغة متألقة كهذه؟ بالفعل بنهاية القرن وكما رأينا في الفصل الأول أصبحت اللغة الإنجليزية اللغة التي لا تغيب عنها الشمس. وبعد ذلك وكما هو حالنا اليوم قام بعض المتحمسون بالتفكير حول مستقبل العالم اللغوي بطرق من الأفضل وصفها بالخيالية .

في عام ١٨٥٠م بلغ عدد المتحدثين باللغة الإنجليزية كلغة أصلية ٦٠ مليون شخص حول العالم – وهذا ارتفاع ملحوظ – ولكن هذا الارتفاع جعل العديد من الكتاب يهتمون بإمكانية اللغة. وبعد انتهاء القرن قام البعض منهم بالإحصاء ثلاث مرات على الأقل للتأكد، والبعض تكهن في عام ١٨٦٠م – وبعد قرن آخر – أن المجموع الكلي للذين يتحدثون الإنجليزية بوصفها لغة أصلية يصل إلى ألف مليون على الأقل. وهذا ما كتبه مؤلف "المجلة الصوتية "حول مستقبل اللغة الإنجليزية .

ولاحظ أن عدد المستخدمين للغة الإنجليزية يصل إلى ٨٠ مليون شخص باستخدامه صيغ تنبؤات السكان في عدد مختلف من المناطق وفق التالي:

الإيطالية	٥٣,٣٧٠,٠٠٠
الفرنسية	٧٢,٥٧١,٠٠٠
الروسية	١٣٠,٤٨٩,٨٠٠
الألمانية	١٥٧,٤٨٠,٠٠٠
الاسبانية	٥٠٥,٢٨٦,٢٤٢
أوروبا	١٧٨٨٤٦١٥٣
الولايات المتحدة الأمريكية	١٨٣٧٢٨٦٥٣

والدول (غير الأوربية) ذات التبعية للعرش البريطاني ١٦٨٥,٤٤٠,٠٠٠ المجموع

أن مثل هذه التكهنات قد وجدت انتشاراً كبيراً لاحقاً وبالأرقام كذلك. وكما رأينا في الفصل الثاني فإن التقديرات المتفائلة باستخدام اللغة الأم في عام ١٩٩٠م بالكاد تجاوزت ٤٨٠ مليون شخص. وفي أواخر القرن التاسع عشر قام الكتاب ببعض الافتراضات والتي تم إثبات عدم صحتها لاحقا. ومنها الاستمرار ببناء الإمبراطورية بنفس المعدل الذي كانت عليه والمحافظة على السيطرة الصناعية البريطانية وإجبار للذين يتحدثون اللغات النادرة على عدم المحاربة من أجل لغتهم. متكهنين بأن نشاط المستقبل اللغوي دائما في خطر.

ولكن أغلب الدفعات العامة لنقاشاتهم مثبتة حتما، ولكن إذا ما أضفنا استخدام اللغة الأجنبية واللغة الثانية للغة الإنجليزية في عام ١٩٩٠م. عندها يكون المتكهنون أقرب صحة منه عن الخطأ." الإنجليزية هي لغة المستقبل "هذا ما كتبه وليم وايت في مجلة المدرس الأسبوعية عام ١٨٧٢م، وكذلك ما كتبه بتمان مع الإحصاءات التي حصل عليها والمشتملة على نفس ما قاله وليم. وهذان فقط نموذجان من مئات النماذج المقتبسة والتي تُمكن من العثور عليها في الأدب. لم أجد مخطوطة واحدة تعارض هذه الآراء من أي شخص كان في الوقت الذي كتبت فيه هذه النقاط.

هذه الملاحظات أعادت إرغام الرواية التاريخية التي ذكرت في الفصل الثاني موضحة جزء من الفترة القصيرة التي أعطيت للإنجليزية للانتقال حول العالم. ولكن هذه الملاحظات لم تذكر القصة كاملة .وبعد أن انتقلت اللغة إلى بلد جديد لم يكن من الضروري إن يتم تبنيها. ولكن يجب عليها هي أن تثبت جدارتها. ولكن يوجد هناك مناسبات والتي حلت لغة الداخلين بدلا من لغة القاطنين. ومن أهم الأمثلة على ذلك المثال الذي يخص الإنجليزية نفسها عام ١٠٦٦ م.

خلال ٢٠٠ سنه من الحكم النورماني بزغت لغة إنجلترا في أوائل بداية الأدب الإنجليزي المتوسط للإنجليزية وليست للفرنسية. وفي الحقيقة لم يكن هناك انصياع لغوي ربما لو قام النورميون بزيادة المساكن بأعداد كبيرة أو لو امتدت العلاقات السياسية بين انجلترا وفرنسا لفترة أطول أو لو كانت إنجلترا من بديتها مؤسسة بشكل جيد من عهد انقيلو كسكون لكانت النتائج مختلفة. كتب هذا الكتاب بجميع الرواية حول عام فرنسا.

لذا ما هي قيمة اللغة لإنجليزية بعد أن نمت وأصبحت منزلتها عالمية خلال القرن التاسع عشر؟ وعلى أية طرق يقوم الناس بتقييمها؟ وفي أية طرق كانوا يستخدمونها؟ وفي أية أوضاع يعتمدون عليها الآن؟ سوف تعطينا الإجابة على هذه الأسئلة فحو الفائدة الاجتماعية للغة والتي في الواقع هي الأكثر معرفة بطرح هذا السؤال لماذا هذا العالم عالم الإنجليزية؟ بعدها أية رواية لغوية مجردة لجغرافية اللغة تنتشر. "مثل تلك المتوفرة في الفصل الثاني."

وتساعدنا كل دراسة جغرافية تاريخية على معرفة ما حصل في الماضي. ولكن الرواية التاريخية الاجتماعية تحتاج منا أن نقوم نحن بشرحها. ولكن الرواية الثقافية وحدها تعطينا فحوى لما قد يحصل في المستقبل.

وسنعرض فيما تبقى من هذا الفصل بعض العناصر المهمة للتاريخ الاجتماعي في القرن التاسع عشر والذي بدورة وضح الأساس الثقافي للنمو الحتمي للغة الإنجليزية كلغة للعالم . وفي الفصل الرابع سنقوم باختبار الدلائل الثقافية المتنوعة لهذا التطور خلال القرن العشرين والذي سيشرح مكانة اللغة الإنجليزية في الوقت الحالي. ولابد من حصر سلسة من الأنواع في مقالة واحدة والتي لها علاقة بعدد من التطورات الثقافية والاجتماعية الرئيسة للمائتين سنة الماضية. ونستطيع أن نقول الآن إن الإنجليزية

وجدت نفسها في المكان الصحيح وفي الوقت المناسب؛ بيد أن إحدى تلك التطورات – منفردة – لم تجعل اللغة الإنجليزية لغة العالم، ولكن تلك التطورات – مجتمعة – وضعت اللغة في موضع مدهش، وهي معا التي حافظت عليها.

التطورات السياسية

لم يجد أغلب المعلقين والمهتمين في بداية القرن التاسع عشر صعوبة في إجابة السؤال التالي: لماذا اللغة الإنجليزية لغة عالمية؟. فهم بكل بساطة يعزون السبب إلى توسع الإمبراطورية البريطانية العظمى. وعلى سبيل المثال، قام إسحاق بتمان (Isaac pitman) في عام ١٨٧٣م، بوضع إحصاءات وتوقعات تضع اللغة الإنجليزية لغة المستقبل، قائلا : "تغطي الإمبراطورية البريطانية ثلث سطح الأرض وتحكم ربع سكان العالم" . وهو ما يوحي بأن تأثير التثقيف البريطاني هو الهدف المنشود في أي مكان في العالم. وكانت اللغة الإنجليزية هي الوسيلة الأساسية لتحقيق هذه النتيجة. وقد ظهرت بالطبع العديد من الآراء المشابهة في ثقافات أخرى كالفرنسية.

ولا شك أن الشعور بالقوة له تأثيره في مثل هذه الثقة، وهو ما ساعد على إيضاح الكثافة التي أتت بها اللغة لنشرها في الكثير من الدول خلال فترة الإمبراطورية. وقد صبت تلك المصادر في مصلحتها لضمان نجاح دورها الجديد، وهو ما قاله وليم راسل (William Russel) في عام١٨٠١ م.

> "إذا اقمنا عددا من المدارس في أنحاء مختلفة في آسيا وأفريقيا لتعليم اللغة بدون رسوم وإعطاء منح متعددة من المصانع البريطانية للطلاب المتفوقين، فإن هذه الخطوة هي الخطوة الأولية التي يستطيع البريطانيين تبنيها ليتم قبول تجارتهم بشكل عام وأرائهم ودينهم بشكل خاص .وستكون اللغة هي الوسيلة لغزو القلب وغرس المحبة فيه ،و هذا أكثر

فاعلية من الغزو بالسيوف والمدافع. ولا بد من إنفاق آلاف الجنيهات على المعلمين والكتب والأقساط الدراسية، لأنه سوف يكون له أثر أكبر في إخضاع مجموعة من الغوغاء الذين يقارب عددهم الأربعين ألفاً بالمدافع والرصاص والبارود."

إن وضع الانتصار العسكري غير مستساغ في أيامنا هذه، ولكنه يقدم شرحاً وبشكل جيد عن ذلك الطابع الزمني . لقد كان ويليام وايت (William White) غير متحفظ عن الدور الذي يمكن أن تلعبه اللغة الإنجليزية وذلك عندما يتم تقديمها في منطقة جديدة من العالم من خلال حديثه عن عدة لغات في الهند، حيث قال ويليام وايت في عام ١٨٧٢م:

"نريد أن نربط كالوكتا ببومباي، وبومباي بمدراس بالطرق وسكك الحديد والبرق وربط المحافظات ببعضها بعضاً. وبذلك نجعل الهند منطقة موحدة بمرور الزمن، ويمكننا أن نجعل لغتنا هي اللغة المستخدمة في تطور تلك الوحدة".

إن لغة التطور المستخدمة في تلك الوحدة، ويقصد بها الرؤية التي صادفت وبشكل سريع الطريق الذي سلكه الإنجليز حول الإمبراطورية البريطانية. إن اللغة كانت هي الضامن والرمز لتلك الوحدة السياسية. كانت هذه هي الرؤية التي مكنت الإنجليز من السيطرة لمدة قرن من الزمان، ثم بقيت اللغة عندما بدأت دلائل وجود الإمبراطورية على أطلس العالم في الانحسار. وقد اختارت العديد من الدول — التي استقلت مؤخراً عن سيطرة هذه الإمبراطورية، والتي كان يوجد فيها أكثر من لغة خصوصاً في أفريقيا — اختارت اللغة الإنجليزية بوصفها لغة رسمية فيها ليتمكن المتحدثون فيها من التواصل مع المجتمع الأصلي على المستوى الوطني.

و ما يزال مفهوم اللغة بوصفه رمزاً سياسياً، خصوصا مع استمرا مخاوف بعض طوائف تلك المجتمعات من أن وحدة وطنهم مهددة من قبل نشاطات ولغات طوائف

أخرى. وسوف نتطرق إلى ذلك في الفصل الخامس حول دور اللغة الإنجليزية على الساحة العالمية في الوقت الحاضر.

وعند الحديث عن الاستعمار، فإن الرغبة في وحدة اعتماد اللغة التي تعكس الهوية الوطنية، والرغبة في التواصل من خلال لغة عالمية مع بقية أنحاء العالم هما وجهان لعملة واحدة. واللغة التي استخدمتها قوى الاستعمار كانت خيارا جيدا للتواصل في المستعمرات نفسها، ولكنها في الوقت نفسه تعكس الرابطة بين المستعمرة والوطن الأم. وفي حالة اللغة الإنجليزية فإن هذه الروابط هي ذات أهمية خاصة وذلك بسبب الطبيعة الخاصة للزمن التاريخي التي تشكلت فيه هذه الروابط. وقد شكلت هذه الروابط – أكثر من غيرها – قناة فاعلة للدخول في الثورة الصناعية.

الوصول للمعرفة

كما سبق الحديث في الفصل الأول، فإن بريطانيا أصبحت المسيطرة صناعياً وتجارياً على العالم في بدايات القرن التاسع عشر. وقد لعب تعدادها السكاني الذي بلغ ٥ ملايين نسمة في العام ١٧٠٠م – وزاد لأكثر من الضعف في عام ١٨٠٠م – دورا في نموها الاقتصادي حيث لم يكن فيه أي دولة تستطيع أن تماثل بريطانيا في ذلك النمو، وفي إنتاجها الوطني المتزايد الذي قدر بـ ٢ ٪ في المتوسط سنويا. وكانت معظم المخترعات في الثورة الصناعي تأتي من بريطانيا مثل استخدام الفحم الحجري والماء والبخار لتحريك المحركات ذات الأوزان الثقيلة، وتطوير المواد الجديدة، والتقنيات والمعدات المستخدمة بشكل كبير في الصناعة وإعطاء مفهوم جديد للنقل. وفي العام ١٨٠٠م، كان التطور الكبير في حقل المنسوجات والتنقيب عن النفط والمعادن – والذي أدى بدوره إلى إنتاج كم هائل من البضائع للتصدير – جعل بريطانيا تسمى في

ذلك الوقت (معمل العالم). وكانت أسماء الوكالات التجارية مثل : توماس نيوكومن وجيمس وات وماثيو بولتون وريتشارد ترافيثيك وجورج ستيفينسون وتشارلز ويتيستون ومايكل فاراداي وهمفري دافي وتوماس تيلفورد وهنري بيسمر – كانت هذه الأسماء متداولة على الساحة العالمية، وتعكس ما حققته بريطانيا في مجال الصناعة في ذلك الوقت.

و تبعا لذلك، فقد كان التأثير اللغوي المرتبط بما حققته بريطانيا في ذلك الوقت بعيد المدى. فقد كان للمصطلحات التقنية والعلمية الجديدة تأثيراً على اللغة حيث أضافت عشرات الألوف من الكلمات الجديدة على اللغة الإنجليزية. ولكن الأهم من ذلك أن تلك الاختراعات كانت نابعة من دولة تتحدث اللغة الإنجليزية وذلك يعني أن على الذين يرغبون بتعلم المزيد عن تلك المخترعات كان ينبغي عليهم تعلم اللغة الإنجليزية وبشكل جيد إذا أرادوا الحصول على الفائدة. وخصوصاً بعد الحروب الفرنسية التي استمرت بين ١٧٩٢م إلى ١٨١٥م، فقد انتقلت العلوم إلى بريطانيا من عدة دول، وأصبح العاملون الأجانب يعملون في المصانع البريطانية، كما جاء الكثير من الرعايا البريطانيين وذلك للحصول على مستوى معيشي أفضل وذلك بتدريس الطرق الحديثة في الإنتاج الصناعي.

لقد جذبت الفرص التي توفرت في بريطانيا آنذاك العديد من المخترعين من القارة الأوروبية والذين ونتيجة لذلك أصبحوا من القادة في حقولهم العلمية. وهذه ثلاثة شواهد مشهورة على ذلك من بداية القرن التاسع عشر وفي منتصفه، وحتى نهايته. فقد ولد المهندس المدني مارك اسمبارد برونيل في فرنسا ولكنه أدرك الثورة الصناعية في الولايات المتحدة قبل أن يذهب إلى إنجلترا في العلم ١٧٩٩م. ووليم سيمنس صاحب صناعة الفولاذ والذي ولد في بورشيا ولكنه استوطن في لندن في

أربعينيات ١٨٠٠م . وجوجليمو ماركوني والذي ولد في ايطاليا وعلى الرغم من أن والدته كانت أيرلندية ولكنه لاقى دعماً بسيطاً لتجاربه فانتقل للعمل في لندن في عام ١٨٩٦م، حيث حصل على أول براءة اختراع له .

و لم يكن ذلك ببعيد عن التطورات التي حدثت في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي تجاوزت بريطانيا مع نهاية القرن لتكون أمريكا أسرع الاقتصادات نمواً في العالم. وهنالك جهود موازية للجهود التي بذلها المخترعون الأمريكيون والذين كان لهم نفس الزخم للثورة الصناعية التي حدثت في أوروبا ويدؤوا ينافسون نظرائهم الأوروبيون في الشهرة، أمثال بنيامين فرانكلين وتوماس اديسون وساموبل مورس وروبرت فولتون . وتدريجياً أصبحت أمريكا تجتذب الباحثين الأوروبيون مثل جين لويس أجازيز في العام ١٨٤٦م والمهندس الكهربائي نيكولا تيسلا في العام ١٨٨٤م وعالم الكيمياء الصناعية ليو بيكلاند في العام ١٨٨٩م. واذا تمت إضافة الأبحاث الأمريكية إلى الأبحاث البريطانية فمن الممكن القول بأن ما يقارب نصف النتائج العلمية والتقنية في ذلك الوقت بين العام ١٧٥٠-١٩٠٠م كانت سيتم كتابتها باللغة الإنجليزية . وإذا ما قمنا بتحليل الكلمات الموجودة في قاموس تشامبر المختصر للعلوم (وهو الكتاب الذي تم الثناء عليه ؛ بسبب انتشاره الدولي) فنجد أن ٤٥ ٪ من الناس في ذلك الوقت كانوا يعملون وبشكل روتيني في أماكن تستخدم فيها اللغة الإنجليزية ،كم كان العديد من الناس يتعاونون مع باحثين يتحدثون اللغة الإنجليزية.

إن طبيعة الثورة الصناعية كانت ستصبح مختلفة جداً لو أنها لم تدعم بالتطير الذي جعل العلوم والمعارف الجديدة متوفرة وبشكل كبير. وبالفعل، فإن القليل من التقنية كان عنصراً مساعداً في نشر الأفكار. وأحدثت الثورة في تقنية البخار تطوراً في الطباعة على وجه التحديد، وأصبح بالإمكان ولأول مرة استخدام بكرة الطباعة ذات

السرعة العالية في وآلة الطباعة السطرية وذلك لطباعة الرموز وإنتاج كمية مهولة من المطبوعات التي لم يسبق لها مثيل. وشملت هذه المطبوعات الكتيبات والكراريس في التقنية الإنجليزية، وكتباً للتعليمات ، وكتباً دورية شعبية وإعلانات وكل ما ينبثق من المجتمعات المتعلمة. وكما كان للاختراعات تأثيرها على أمريكا، فإن المواد التوضيحية في اللغة الإنجليزية زادت وبشكل كبير جداً.

إن الدخول في المعرفة الجديدة لقي دعماً وبشكل كبير من تطور النقل. ففي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كان لازدهار الوسائل الجديدة في النقل (خصوصاً السفن البخارية والسكك الحديدية) كان لها الفضل في البدء بعملية تقريب الناس من بعضهم بعضاً. وفي النصف الثاني من القرن نفسه، كان للتطور في أنظمة الاتصال الجديدة (خصوصاً الهاتف والبرق) كان لها أثر في جعل الناس على اتصال وبشكل فعلي وفوري. وبينما استغرق الأمر ٤ أيام لتصل أخبار معركة وترلو إلى لندن في العام ١٨١٥م، فقد استغرق الأمر ساعات فقط لتصل أخبار غزو جالبولي في الدردنيل في العام ١٩١٥م.

إن التطور السريع وبشكل كبير في طرق النقل ساعد على توفر المنتجات في الثورة الصناعية. كما أن الطرق الجديدة في الإنتاج تطلبت طرقاً ووسائل جديدة في النقل. وبالتحديد، وكما كانت اللغة مهمة فإن توزيع الجرائد والصحف اليومية وبشكل كبير لم يكن ممكنا ما لم يكن هنالك سككاً حديدية، وفي وقت لاحق ما لم يكن هنالك شبكة طرق تتسع لسيارات ضخمة وكبيرة الحجم. والخطوة الأخرى الكبيرة كانت اكتشاف المصادر الجديدة للطاقة. أدوين إل : الذي عثر على أول بئر للبترول في بنسلفانيا في العام ١٨٥٩م وبحلول العام ١٨٨٠م كانت شركة البترول

القياسية التي تدار من قبل جون دي روكفولر وشركاه تدير مصافي البترول لأكثر من ٩٠٪ من البترول الذي يتم إنتاجه في الولايات المتحدة.

و لم تكن منظمة البترول القياسية إلا واحدة من عدة منظمات ظهرت في الولايات المتحدة خلال العقود الأخيرة من القرن، وقد نشأت هذه المنظمة؛ نتيجة للمصادر الطبيعية الضخمة التي تتمتع بها الولايات المتحدة والطلب الزائد الناتج عن النمو السكاني السريع بها. وهنالك إمبراطورية ويليام راندولف هرست الصحفية كمثال آخر للمنظمات، وإمبراطورية الصناعة والأعمال المصرفية والنقل للممول جون بيربونت مورغان . ومع مرور الزمن أصبح البنك الذي يعود له واحداً من أقوى المنظمات الممولة في العالم وذلك بمساعدة وتمويل الإمدادات، وحاجات الحلفاء بالآجل في الحرب العالمية الأولى ومعظم تكاليف إعادة بناء أوروبا في فترة ما بعد الحرب . وكانت الدولة الوحيدة المتقدمة والتي يمكن مقارنتها بالقوة المالية والصناعية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر كانت ألمانيا ولكن كل تلك الأشياء اختفت عقب الهزيمة في العام ١٩١٨م تاركةً المجال لسيطرة الاقتصاد الأمريكي.

وقد شهد أوائل القرن التاسع عشر نمواً سريعاً في أنظمة الأعمال المصرفية وخصوصاً في ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. وقد دعمت هذه المنظمات الجديدة نجاح الشركات الصناعية المطورة واستغلت أمن الحكومة وسهلت نمو الاستثمار والتجارة العالمية . كما أن أقل الدول الأوروبية ثروة على وجه التحديد والمستعمرات الخارجية كانت بحاجة إلى جذب الاستثمارات الأجنبية وبشكل عاجل. حيث إن شركات مثل روتشيلد ومورقان نمت استجابة لتلك الحاجة وأصبحت لندن ونيويورك هي استثمارات رؤوس الأموال في العالم.

و في العام ١٩١٤م كانت الولايات المتحدة وبريطانيا تستثمران سويا ما يزيد عن ٤٥٠٠ مليار جنيه إسترليني في الخارج وشكل ذلك الرقم ثلاثة أضعاف ما استثمرته فرنسا وتقريباً أربعة أضعاف ما استثمرته ألمانيا. وكانت النتيجة هي الحكم الإمبراطوري الاقتصادي كما تمت تسميته لاحقاً وقد أعطى ذلك بعداً جديداً لميزان قوة علم اللغة. إن المدخل إلى المعرفة أصبح الآن (المدخل إلى معرفة كيفية الحصول على الدعم المالي). وإذا كان للاستعارة الأدبية (المال يتحدث) أي معنى فلابد أن المال في تلك الأيام كان يصيح وبصوت عالٍ واللغة التي كان يصيح بها كانت غالباً هي اللغة الإنجليزية.

الوضع البديهي

إن قصة اللغة الإنجليزية في هذه الحقبة الزمنية هي واحدة من أسرع عمليات التوسع والتنوع. ومع ظهور اختراع تلو الاختراع الآخر أصبح استخدام اللغة بمثابة الوسيلة الرئيسة أو الأساس في للتعبير. وليس من الممكن تعريف العلة والتأثير. ولذلك، فإن جزءاً كبيراً من التطور حدث في الفترة نفسها التي يمكننا الإشارة إليها بفترة ظهور مناخ تسود فيه الأفكار التي لا يمكن التعبير عنها (في نهاية القرن التاسع عشر) والتي جعلت من اللغة الإنجليزية هي الخيار الطبيعي للتطور. وسوف نتطرق إلى هذا المناخ في الموضوعات التي سنعرضها في الفصل الرابع.

إن مصطلح (اللغة الغير منطوقة) هو مصطلح مهم. فبالإمكان اكتشاف عملية صنع القرار والتي كانت تحدث في الوقت الذي كان يصعب فيه إيجاد مسوغ مقبول لدور اللغة الإنجليزية. فعندما تم بث أول إذاعات راديو يبدو أنه لا أحد أهدر أي وقت ليناقش ما إذا كان ينبغي أن يكون بث محطات الراديو تلك باللغة الإنجليزية. وكان

هنالك الكثير من النقاش حول نوع اللغة الإنجليزية التي يجب أن تستخدم ولكن بالطبع فخيار اللغة في المقام الأول لم يشكل أي مشكلة. ولم تعد اللغة الإنجليزية مشكلة في التطور الآخر الذي جذب أبصار عامة الناس في بداية القرن الجديد.

ولم يكن هناك ما هو جديد في الاعتماد على اللغة الإنجليزية بهذا الشكل. وإعطاء اللغة الإنجليزية طابعها الاستعماري في بلدان المناطق الداخلية، كما أن ثبات اللغة هو أمر لا يمكن التشكيك فيه. ولم يكن هنالك أي منافس من اللغات الأخرى ولا أزمات في هوية اللغة في مناطق القوة الاستعمارية ولذلك لم هنالك أي تهديد. ولاشك من أن جعل اللغة الإنجليزية لغة رسمية وجد في أي مستندات مهمة للتاريخ البريطاني ولم يتم إعلان اللغة الإنجليزية أبداً بوصفها لغة رسمية في تلك البلاد. ولم تتفرد اللغة الإنجليزية للتعبير عندما كان الدستور الأمريكي في طور الكتابة. ولكن كانت هنالك حاجة إلى وجود قوانين من أجل الصراعات. ولم تكن أياً من الصراعات التي تأججت في تلك الفترة قادرة على تهديد مكانة اللغة الإنجليزية وتبعاً لذلك لم تكن هنالك حاجة إلى قوانين.

إلا أنه ومع مضي القرن التاسع عشر، فإن الأوضاع التي طرأت كانت مراراً هي أوضاع اللغة الإنجليزية (ولغات مستعمرات قديمة) وذلك دعا للتحقيق. وكان السيناريو النموذجي هو عندما يتحدث الشخص لغة ويشعر أن وجود تلك اللغة بات مهدداً ويحتاج لحماية لوجود لغة أكثر سيطرة. وفي مثل هذه الحالة، فإن القوة المسيطرة ستأخذ مقاييس لحمايتها (وذلك عادة عند وجود ضغط من الأقليات في المجتمع)؛ وذلك بإعطاء اللغة اهتماماً خاصاً. ويحدث هذا عادة وخصوصاً في العقود الحالية من الزمن وذلك في الدول الداخلية، وعلى سبيل المثال فإن قدراً قليلاً من الصفة الرسمية قد أعطيت للكنة (ويليش) في ويلز و(جايلك الايرلندية) في أيرلندا

والفرنسية في كوبيك والماورين في نيوزيلندا .وفي كل حالة فإنه يثبت وجوب الانتباه إلى الدور الرسمي المتماثل للغة الإنجليزية.

ومن بين الدول التي تستخدم اللغة الإنجليزية بوصفها لغة ثانية، عادة ما يكون قرار إعطاء اللغة الإنجليزية طابعاً رسمياً للحلول دون وقوع مشكلات عند الاختيار بين لغتين محليتين متنافستين، وبهذا المنظور، يُنظر للغة الإنجليزية على أنها لغة محايدة، ومن الأمثلة على ذلك غانا ونيجيريا ولكن بالطبع لا ينظر الجميع للغة الإنجليزية على أنها لغة محايدة،(كما سنرى في الفصل الخامس)، كما هو الوضع كينيا، ولكن عند اتخاذ هذا القرار فعادة ما يكون مبنياً على ذريعة سياسية.

وقد يظن البعض أنه من غير المحتمل ظهور مشاكل في البلدان التي يتحدث ما يقارب ٩٥٪ من ساكنيها الإنجليزية كبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، ولكن عند ظهور تغيرات حتى لو كانت طفيفة في التركيبة السكانية قد تؤدي إلى نتائج لغوية وخيمة، أما عند حدوث تغيرات كبيرة في التركيبة الاجتماعية كالتي حدثت في القرن الماضي عن طريق الهجرة، فإن نتائجها المحتملة على السياسة اللغوية قد تكون بعيدة المدى، كما سنرى لاحقاً في النقاش الحالي حول دور اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة الامريكية.

ولكن في عام ١٩٠٠م، لم يكن بالإمكان إجراء مثل هذا النقاش، فأصبحت اللغة الإنجليزية هي اللغة المهيمنة على السياسة والاقتصاد العالميين، كما أن جميع المؤشرات تدل على أن الوضع سيظل على ما هو عليه، فمكانة اللغة الإنجليزية لم تكن موضع تساؤل، كما أن الولايات المتحدة الأمريكية تلعب دوراً واضحاً في مستقبل اللغة الإنجليزية، ومن الأدلة البارزة على ذلك ملاحظة بسمارك وذلك عندما سأله أحد الصحفيين عما يعتبره عاملاً حاسماً في التاريخ الحديث، فأجابه بحقيقة تحدث سكان أمريكا الشمالية باللغة الإنجليزية، يلزم الحفاظ على مكانة اللغة الإنجليزية

فترة من الاندماج والتوسع وهذا كان على وشك الحدوث كما سنستعرضه في الفصل القادم بإسهاب.

obeikandl.com